

تقبل تقييده باسم الاخلاق ؟ فلننظر فيما يقوله من يستعملون هذه الحجة .

يقولون : كيف نسمح لمفكر بأن يعبر عن آرائه اذا كانت تناقض الخلق القويم ، وتزعزع تقاليد الفضيلة ، وتبث سموم التحلل الاخلاقي وتدعو الى ما هو رذيلة سافرة ؟ الا يحق لنا محافظة على اخلاقنا الطاهرة وفيما الرفيعة وتقاليدنا الكريمة ، وحفظا لكيان المجتمع الذي لا تقوم له قائمة اذا اهدرت حدود الفضيلة وشاع الاثم والفساد، ان نحرم تداول الآراء . الرذولة والمذاهب الفسدة لاخلق الرجال والنساء ؟

وكلامهم هذا يبدو - هو الاخر - وجيها . السننا نؤمن حقاً بأنه لا بقاء لمجتمع اذا اهدرت فيه القيم الاخلاقية ؟ لكن اسبابا كثيرة معقدة تجعلنا نرفضه من اساسه ونرفض ان يتخذ حجة لتقييد الفكر الجديد . اولها واوضحها استحالة تحديد ما الخير وما الشر والاتفاق على مقياس اخلاقي واحد يفصل بين الفضيلة والرذيلة وبين القيم الرفيعة تبيينا يرضاه الجميع ويقطع كل شك . ومعنى هذا استحالة الوصول الى حكم قاطع في اي الآراء مفسد للخلق وايها لا ضير منه على الخلق ، اصف الى هذا سببا ثانيا كبيرا الخطر ، هو ان كل مجتمع يعتقد ان اخلاقه وقيمه وتقاليد فاضلة خيرة كريمة، ويصعب عليه ان يدرك حاجتها الى التغيير كلما تغيرت اوضاعه واحواله .

فالحق ان القيم التي لا اختلاف فيها هي تعبيرات عامة جدا ومبهمة جدا . كلنا يؤمن بان العدل فضيلة وان الظلم رذيلة ، ومعظمنا يسلم بان القسوة شر وان الرحمة خير ، لكن الصعوبة تنشأ في التطبيق ، ما هو السلوك العادل في مسألة معينة ؟

وهل الحكم الذي اصدره قاض في قضية معينة قاس اومتهاون؟ هنا قد تختلف الآراء وقد تتناقض .

ونحن جميعا نسلم بان العفة فضيلة وان الشهوانية رذيلة ، ولا نشك في هذه القيمة الاخلاقية . لكن بعضنا يعتقدون ان العفة لا تتحقق الا بالزواج بامرأة واحدة ، ويستشعرون تعدد الزوجات ويرونه لا يختلف في شيء عن الزنا . في حين ان آخرين لا يرون فيه قبحا . بل منهم من يعده فضيلة كبيرة لا يستطيع الرجل بدونها ان يثبت رجولته كما انها مرتبطة بمحصوله الثقافي المتمثل في مدى ادراكه لعقائيق الوجود وعقائيق المجتمع البشري والطبيعة البشرية ففي النوع الاول من المجتمع اذا قام مفكر يدعو الى السماح بتعدد الزوجات في حالات معينة يرى التعدد فيها ضرورة وخيرا اتهم بافساد الاخلاق . وفي النوع الثاني من المجتمع اذا قام مفكر يدعو الى تقييد هذا الحق المعطى للرجل او الفائه اثار قدرا كبيرا من الازم والادانة .

وهناك من الرهبان والنسك من يرون الاتصال الجنسي كله قدرا وندسا ، ولا يرضون عنه اي صورة محللة او محرمة ، ولو اسلمنا اليوم اليهم امرنا لحرّموا علينا الزواج تحريما باتا وعجلوا بذلك من انقراض الجنس البشري !

الحقيقة التي يشهد بها التاريخ هي ان القيم الاخلاقية ليست قوالب ثابتة لا يطرا عليها التغيير ، بل هي في تطور دائم وتبدل مستمر . وسر هذا انها ليست اعتبارات نظرية ، بل هي امور حيوية جدا، متصلة اشد اتصال بضرورات المجتمع وظروفه ، مرتبطة بنظامه السياسية ، واحواله المادية ، واوضاعه الاقتصادية وطرق تحصيله للرزق . فهي تتغير - او ينبغي ان تتغير - كلما تغيرت هذه الظروف واختلفت هذه الضرورات . لكن هذه الحقيقة هي بالضبط ما لا يدركه او لا يسلم به كثيرون من اعضاء المجتمع ، فهم يصرّون على الاحتفاظ بقيم كانت مناسبة لاحوال واوضاع ماضية وربما لم تعد صالحة للظروف الجديدة . وهم في هذا الاصرار يتخذون مواقف عاطفية

والآن ... المسألة النورية الفكرية !

بقلم الدكتور محمد النوحى

٢ - الاخلاق وحرية الفكر

اذا كان الدين (X) هو اول حجة تستخدم في مقاومة الافكار الجديدة ، فان الحجة الاخلاقية هي الحجة الثانية . بل كثيرا ما تمتزج الحجتان ، فيقال عن الرأي الجديد انه هادم للدين مفسد للخلق . وقد رفضنا ان يقيد الفكر الجديد باسم الدين ، فهل

(X) راجع القسم الاول من هذا المقال في العدد الماضي من

الاداب .

مشحونة تجمل من العسير مناقشتهم ، فهم يستخطون اقوى السخط على من يدعومهم الى تغيير قيمهم ويظنون به اسوأ الظنون .
فلنضرب مثلا على تطور القيم الاخلاقية من الانتقال العظيم الذي جاء به الاسلام الى العرب . فالعرب الجاهليون كانوا يتصفون بعدد من الصفات ويمارسون عددا من الممارسات يعدونها اما امورا عادية لا تثير استنكارا ، واما فضائل مؤكدة كبيرة القدر فسي مجتمعهم . مثل التعصب للقبيلة والاعتداء على القبائل العربية الاخرى ، والانتقام والاخذ بالثار ، وسفك الدم لمجرد اثبات الشجاعة البدنية والمهارة الحربية ، وشرب الخمر وهب اليسر تفاخرا بالفنى وظهارا للجاه ، والكرم السرف لنفس الفرض ، وقدر عظيم من الاباحية الجنسية ، واحتقار الاناث وواد البنات في قبائل شتى . وكل هذه الصفات والممارسات كانت مرتبطة بنظامهم الرعوي الذي يقوم على تسابق القبائل الى الماء والكلاء ، ويستلزم قدرا كبيرا من البأس والصرامة للفرز في التصارع القبلي ، ويجعل مكانة القبيلة معتمدة على كثرة ابناءها الذكور .

ثم جاء الاسلام فعد بعض هذه القيم والعادات رذائل كبيرة وحرمها مثل القتل والخمر واليسر والزنا وواد البنات ، وهبط بعضها الاخر في سلم القيم ، مثل الكرم الذي ما زال يعده فضيلة لكنه لم يضعه في المرتبة الاولى وحذر من الاسراف فيه ودعا الى التوسط . كذلك الشجاعة اذا استتبعت الاعتداء والقسوة . ثم رسم للعرب طرازا من القيم الاخلاقية مختلفا جدا ، اعطى فيه الدرجة العليا للسلم وعدم الاعتداء بين القبائل ، والعفو والصفح ، واللين والرحمة ، والحلم والاعتدال والصحو (ضد السكر) ، والتعفف العملي والقولي ، والصدق والامانة والوفاء بالمهود . وكل هذه كانت صفات واعمالا يعدها معظم الجاهليين اما رذائل قبيحة تناقض الروءة والبطولة وتدل على الضعف والهانة ، واما اشياء لا يوليها معظمهم اعتبارا كبيرا . وواضح ان هدف الاسلام كان هو نقل العرب من طور القبلية الى طور اعلى ، يكونون فيه امة واحدة متعاونة متسائلة ، وهو هدف لم يكن من الممكن ان يتحقق لو احتفظوا بقيمهم القديمة التي كانت تناسب مجتمعهم القبلي .

فاذا زدنا هذا المثل انعام نظر تجلى لنا اننا برغم اسلامنا لا نزال نحتفظ بعدد غير قليل من الصفات والممارسات البدوية القديمة ، ولا نزال نصدر عن عقلية هي في صميمها عقلية قبلية ، الامر الذي يتجلى بنوع خاص في مظهرين كبيرين ، عجزنا حتى الان عن توحيد العرب في امة واحدة تعلو على اختلاف القبائل والشعوب ، واحتقارنا للثاني ورفضنا ان نفر لها بمكانة كريمة في المجتمع .
فاذا جئنا الى امثلة من التاريخ الحديث ، رأينا كم تختلف القيم الاخلاقية التي يعليها النظام الراسمالي عن تلك التي ينادي بها النظام الاشتراكي ويجاهد في اقرارها .

فالنظام الراسمالي يمثل بلا شك مرحلة اكثر تقدما من النظام القبلي والنظام الاقطاعي ، فهو لا يسمح بالتعادي بين افراد الامة الواحدة ، ويلزمهم جميعا بالخضوع للقانون . لكنه مع ذلك يجيز ان تعتدي امة قوية على امة اخرى ضعيفة فتسلبها مصادر ثروتها الطبيعية ، ويربر هذا الاعتداء باسم التعمير او الاستعمار ، ويحتج له بان الامة المغلوبة لا تحسن استفلال مصادرها ، ويتشدد بما يسميه واجب الرجل الابيض في تحضير الجماعات المتخلفة . وهذا في حقيقته لا يختلف عن تراحم القبائل في النظام الرعوي على امتلاك الماء والمرعى ، او تصارع امراء المقاطعات في النظام الاقطاعي .

ثم ان النظام الراسمالي ، وان حرم السرقة والاعتداء السافر من الفرد على الفرد في داخل الامة ، واخضع جميعهم للقانون ، قد صاغ هذا القانون صياغة تعطي بعض الافراد امتيازات وحقوقا لا يتمتع بها الآخرون . والذين يفوزون بهذه الامتيازات والحقوق في النظام الراسمالي هم الافراد الذين يبدون حرصا زائدا على

تجميع المال لانفسهم . فهذا النظام يجيز لهم في سبيل تجميع ثروتهم ومضاعفة راسماليهم الوانا من الممارسات يراها انصار الاشتراكية لا تغل في صميمها انانية وجشعا ولا تغل ابتزازا وسرقة عما كان يحدث في النظامين القبلي والاقطاعي .

وسبب هذا الخلاف ان الاشتراكيين يرفضون الاساس الذي يقيم عليه الراسماليون نظامهم ويررون به ممارساتهم ، وهو تأسيس النشاط على حافز واحد هو حافز الربح الشخصي . ويريد الاشتراكيون ان يؤسسوا النشاط الانساني على حوافز اخرى مختلفة تماما يرونها اكثر ايثارا وغيرية ، اذ تنظر الى مصلحة الامة كلها دون تفصيل طبقة على طبقة ، وتخطط هذه المصلحة تخطيطا علميا بعيد النظر ولا تتركها مجالا للتنافس والتكالب . ثم تنظر الى مصلحة الانسانية كلها دون تفضيل لجنس على جنس كائنا ما كان نصيب الجنس من القوة او الضعف .

فاذا ادنا النظر في قيمنا الراهنة وجدناها خليطا من بقايا النظام الرعوي القبلي ، والنظام الاقطاعي ، والنظام الراسمالي ، وفهمنا لماذا تلقى الدعوة الاشتراكية ما تلقى من العناء الشديد . فمن النظام القبلي ورثنا ما ذكرناه من الانقسام الداخلي واحتقار المرأة . وعن النظام الاقطاعي ورثنا اساءة الظن بالحكومة وبذل كل جهد في عصيان اوامرها . فهذا النظام لا توجد به حكومة مركزية موحدة بل توجد فيه مقاطعات واقاليم متعادلة تسعى كل منها في مصلحتها الخاصة تحت امرة اميرها . ومن هنا لا يزال كثيرون من افراد مجتمعنا يرفضون ان يصدقوا ان الحكومة في صفهم وانها تمثل مصلحتهم العامة . فهم يعدونها عدوة لهم ويجيزون لانفسهم ان يخدعوا ويضيعوا حقوقها ويسرقوا مالها . لذلك قولتهم المشهورة « مال الحكومة حلال » . ولذلك كثرة حوادث الاختلاسات في المصالح الحكومية والمؤسسات العامة والقطاعات التي امنت .

★ ★ ★

في ضوء هذا كله نستطيع ان نفهم طبيعة المعركة الحامية المريرة التي تنشب حين يقوم بعض المفكرين فيدعون الامة الى تغيير في قيمها الاخلاقية . ونفهم بنوع خاص مدى الصراع الذي سيفطر اليه مفكر امتنا حين يمضون في ثورتهم الفكرية ، فان امامهم ميرانا ثقيلتا متراكما مخلطا من القيم الجاهلية ، والقيم الاقطاعية ، والقيم الراسمالية ، التي تقوم عقبة وعرة دون المجتمع الجديد الذي نريد ان نبنيه ، ونريد ان نؤسس على النظام الاشتراكي في شؤون المادة والفكر .

ومنشا المشكلة هو ان الوعي الاخلاقي لمعظم افراد المجتمع يتخلف عن ملاحقة التطور المادي والسياسي والفكري الذي يطرا على المجتمع . وعما يقتضيه هذا التطور من تطوير القيم الاخلاقية . فهم يستمسكون بقيم كانت صالحة لعهد مضى وظروف انقضت ، ويعتقدون انها نهاية الفضيلة وجوهر الخير ، وياؤبون ابناء حاربا عنيغا ان يغيروها ، لانهم يظنون ان تغييرها هدم لاساس الفضيلة نفسه . ويتهمون اقبح اتهام من يدعون الى تغييرها ويظنون بهم شر الظنون . فلو كانت القيم الاخلاقية تتبدل بتدلا تلقائيا بتبدل الظروف والارواح لما كانت هناك مشكلة . ولو كان الناس مستمدين لتغييرها بسهولة لما كانت هناك مشكلة كذلك . لكنهم ينشبتون بقيمهم المألوفة ذلك التشبث العاطفي العميق والنفساني العمق فيكون من العسير زحزحتها من مكانتها الوثيقة المحببة في قلوبهم . بل يبلغ بهم الامر ان يفضلوا الاحتفاظ بها وان جلبت عليهم اضرارا مادية بليغة على ان يغيروها ويكتسبوا بهذا التغيير فوائد جلية لانفسهم ومجتمعهم .

ولمك نتجح في ان تثبت لهم ضررها وتقمهم منطقيافانسة

تفسيرها ، لكنهم مع هذا يتشبثون بها الى اخر مدى يستطيعونه . ويحتالون حيلة شتى ليحتفظوا لها بقناع الفضيلة التي تتلبس به . وكثيرا ما يتلمسون لها تبريرا دينيا حتى حين تكون في حقيقتها من بقايا وثنيتهم التي سبقت دينهم السماوي .

تأمل مثلا في ختان البنات ، هذه العادة القاسية الضارة التي تنتشر في كثير من الاقطار العربية ، والتي تتخذ في بعضها افطع صورها فيما يسمى الختان الفرعوني . لا شك هناك في انها من بقايا الجاهلية والمجتمعات المتخلفة التي تظن بالمرأة ظن السوء وتحقرها وتقسو عليها . ولا شك كذلك في اضرارها الوخيمة الجسمية والنفسانية . وقد كتب بعض اطبائنا وعلماء النفس عندنا في بيان هذه الاضرار الخطيرة . لكن انظر كيف يعتقد اكثر المسلمين ان الاسلام يفرض ختان البنات برغم فتاوى العلماء دعت من حملات الاطباء وعلماء النفس . وذلك لانهم يعتقدون ان ختان البنات ضرورة لازمة لعفتها والتزامها مسلك الفضيلة . فهم يكرهون من يحملون على هذه العادة الوحشية ويرونه داعيا الى النجس والفجور ، ولا يرون فرقا بين دعوته وبين الدعوة الى التحلل الخلقي والفوضى الجنسية .

وهذه نفس نظرتهم الى من يقوم بينهم فيدعو الى تحرير المرأة من استبداد الرجل الفاشم واعطائها حقوقها المسلوبة في الحياة الكريمة والمساواة الانسانية الفاضلة .

هم يعتقدون ان غرضه الخفي ليس الا اهدار الزوجية واضعاف رباطها المقدس وتحطيم الاسرة وحمل النساء على التمرد والمروق ونشر الاباحية بين الجنسين . وفي مثل هذه الحالة النفسية من القصب وسوء الظن يصعب عليهم او يستحيل ان يقتنعوا بان اذلالهم للمرأة وما يوقعونه عليها من الظلم والقسوة ليس الابقية من نظرتهم الجاهلية الى الانثى ، هذه النظرة التي صورها القرآن تصويرا حيا مؤثرا حين وصف ما يعتور وجه احداهم من الخجل والفيظ حين يبشر بمولد انثى له .

اذا كان لكل ما ذكرناه مغزى فهذا مغزاه الواحد : اننا لا يحق لنا ابدا ان نكرم نشر رأي جديد مخالف لقيمنا وتقاليدينا بحجة انه مناف للخلق القويم ، مهما يد لنا انه ينافي الفضيلة حقا . فمن يدرينا لعلنا نحن الذين نتصف بخصال مردولة ونمارس عادات قبيحة شريرة وهذا الفكر المنجد يريد ان يطهر خلقنا ويكسي عملنا وينتشلنا من حماة الرذيلة التي طال تعودنا عليها ، حتى الفناها واحبينها ولم نر بها قبحا ولا شرا بل ظننا بها الحسن والخير .

فان انت قرأت في تاريخ الجهاد الفكري وتدبرت سير الدعوة الى الاصلاح او الثورة فانك واجد ان كل الداعين الى رأي جديد او مذهب جديد يخالف ما شاع في مجتمعهم قد اتهموا بانهم انما جاءوا ليفسدوا الاخلاق وينشروا الرذيلة ويقوضوا اسس المجتمع الفاضل ويشيعوا التحلل الخلقي . تجد هذا في التاريخ العربي منطبقا على كل مفكر واع من سقراط الى برنارد شو . وتجد في تاريخنا الحديث منطبقا على كبار مفكرينا ودعاة الاصلاح بيننا ، مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وقاسم امين وعلي عبدالرازق وسلامة موسى وطه حسين .

بماذا اتهم هؤلاء حين قاموا يدعون الى افكارهم الجديدة ؟ ما ترك خصومهم رذيلة خلقية الا الصقوها بهم . فما رأينا فيهم الا ان وهل تستطيع بلادنا ان تفخر بمن يفوقهم نبيل خلق وسلامة طوية ونقاء ذبل وحساسية ضمير ؟ وماذا كان يحدث لو نجحنا في قتل آرائهم الجديدة التي كنا نراها وقت ظهورها خاطئة ضارة فاسدة مفسدة ؟ اكانت امتنا العربية تصل الى ما وصلت اليه

من مرحلة التقدم وبدء الاقبال على الثورة الجذرية الشاملة ؟ وما مغزى هذا مرة اخرى ؟ اليس مغزاه اننا لا يجوز لنا ان نكبح رأيا جديدا بحجة انه مناقض لقيمنا وتقاليدينا مهما يكن من هذه المناقضة ؟ بلى ، ولكن له مغزى ابعد من هذا بكثير : وهو اننا الان لا نحتاج الى نظير تجديد هؤلاء الذين ذكرناهم فحسب ، بل نحن نحتاج - اذا كنا جادين في ثورتنا الجذرية الشاملة - الى اضعاف ما استطاعوا في ازمانهم من جرأة على التجديد الفكري . وان مجتمعنا اذن يجب ان يكون مستعدا لان يسمع من مفكره الثوريين حملة لم يعرف لها نظيرا منذ مجيء الاسلام في معارضة تقاليده الراسخة وقيمه المحببة التي تحتل من قلبه مكانا عزيزا .

٣ - الوطنية وحرية الفكر

الثورة الفكرية التي نريد لها ان تقوم فتخضع للنقاش والتمحيص كافة مفاهيمنا السائدة وقيمنا المقبولة ، والتي ترى انه لا نهوض لامتنا العربية من عثرتها الا بقيامها ، هذه الثورة لن تؤلم مشاعرنا الدينية ومشاعرنا الاخلاقية فحسب ، بل لامناص من ان تؤلم ايضا مشاعرنا القومية الى درجة عميقة من الايلام . اعني انها لن تمس مجرد حساسيتنا من حيث اننا نؤمن بدين سماوي معين نفسه تفسيريا خاصا ، ولا مجرد حساسيتنا من حيث اننا نرتضى مجموعة معينة من القيم الاخلاقية نعتقد بفضلها وصلاحها بل هي ستمس كذلك حساسيتنا من حيث اننا مواطنون نتخذ موقفا معيننا من وطننا ، ونعتنق طائفة من الآراء حول تاريخه وقضايه . ونقبل عددا من المسلمات حول ميزات اهله ومناقبهم .

وهذه الآراء والمسلمات عزيزة على قلوبنا ، شديدة التمكن من نفسياتنا ووجداننا ، لان عاطفة الارتباط بالوطن من اقوى العواطف الانسانية في العصر الحديث ، ثم انها تكون على اشد شدتها واعنف توفرها حين يمر الوطن بمرحلة حرجة من تاريخه يتهدده فيها الاعداء الخارجيون ، وهي المرحلة التي يجد وطننا العربي فيها نفسه الان بين الاستعمار والصهيونية . لذلك يكون اخضاع مسلمات الامة واراؤها للنقاش والتمحيص الذي سيسلك في كثير منها او يثبت خطاه عملا لا بد ان يجرح شعورنا بالاعزة القومية ، وان يشير فينا قدرا كبيرا من الاحساس بالذنب وما يتولد عنه من الشعور بالخجل والخزي . فنحاول ان نداوي هذا الشعور المؤلم بالانكار الفاضل والسخط القوي على من اتاروه فينا . ونجده حلا سهلا وتخلصا مريحا ان نشكك في وطنيتهم وقوميتهم ، اي في حبه للوطن وارتباطهم بقضايه الكبيرة ، فنزيمهم بضعف الشعور الوطني وفتور العصبية القومية ، ونتهمهم بتعمد اخزائنا لمجرد حبهم جلب الخزي الينا ، وبتعمد اشمات الاعداء فينا ، ثم ننزلق من هذا الى اتهامهم بتلك السبة الكبرى والجرم الاشنع : الخيانة الوطنية .

الخيانة الوطنية : هذه هي التهمة الاخيرة التي يتعرض لها كل مفكر ثوري جاد في ثورته يصر على التمهيع الكامل لمفاهيمنا الشائعة وقيمنا الراجعة . ولا اظنني ابالغ اذا قلت انها - في المواقف الراهنة الشديدة الحساسية للامة العربية - اكبر خطرا وابلغ اذى من التهمة الدينية والتهمة الاخلاقية كلتيهما . فهي اشد التهم فعلا في اثاره الجماهير الفاضية ، وهي لذلك في ظروفنا العسيرة الراهنة اعسر العقبات التي يواجهها الفكر الثوري . فالذي يحرمنا حرية التجديد الفكري هذه الايام ليس مجرد التقليد الديني الذي يصر على الجمود ، ولا مجرد النظرة الاخلاقية العتيقة التي ترفض التطوير ، بل ربما كنت مصيبا اذا قلت ان ما نعانيه الان من جمود ديني وتحجر اخلاقي ليسا في اغلبهما الا مظهرين من مظاهر حساسيتنا

القومية المفرطة التوفز السريعة التاذي .

التعصب القومي - لاطوانهم ومن السعي الجاد المتفاني في خدمتها وتحقيق اسباب رفاهيتها مقدمين هذا على كل مصلحة شخصية ضيقة .

ان انس لا انس دهشتي الكبيرة اول ما بدأت دراستي الجادة للادب الانجليزي حين كنت اقبل على انتاج شاعر معين او كاتب معين يقول النقاد الانجليز عنه انه يتميز بقوة الشعور الوطني، او ان القضية الوطنية تحتل نصيبا كبيرا من اهتمامه وتشغل حيزا مهما في انتاجه . فلا اجد ذلك الشاعر او الكاتب في اغلب ما يقول يتقنى بمحامد وطنه وامجاده ، بل اجده على العكس تماما يكثر من التنديد بمواطنيه ومؤاخذتهم بما فيهم من نقائص وما ارتكبوا من جرائم ! واذا هذا هو المفهوم الشائع للوطنية في النقد الانجليزي . فلما تكررت الظاهرة بدأت افهم ماذا يعنون بالوطنية، وادرك كيف يرون دليلها الاكبر هو مدى شجاعة الكاتب او الشاعر في نقد عيوب مواطنيه ومطالبتهم بتغيير ما يرى خطأه وفساده من عقائدهم وقيمهم وممارساتهم . ثم بدأت اسأل في حيرة: متى يتوفر بيننا نحن العرب نظير هذا التطور في مفهوم الوطنية؟

لا شك اننا قطعنا مرحلة لا بأس بها نحو هذا التفسير المنشود ولكي ندرك ما قطعناه وما تبقى علينا ان نقطعه نعود بذاكرتنا الى الماضي القريب حين كان يحكمنا حكام النظام الاقطاعي الرأسمالي، فلم تكن الوطنية سوى سياسة تخدير .

كان معظم حكامنا في ذلك النظام حكاما جشعين انانيين لا هم لهم الا نيل مآربهم الفردية وتكديس ثرواتهم والمحافظة على سيطرتهم وجاههم يستغلونه في اشباع غرائزهم وقضاء شهواتهم . ولم يكونوا يهتمون مثقال ذرة بما تعانيه من جهل وانحطاط وتخلف وضعف بل كان من مصحلتهم ان يبقوا عليها لانها هي التي تمكنهم من الاحتفاظ بسطوتهم علينا وانتهاج ثرواتنا واستنزاف دماننا . لذلك كان همهم ان تظل الامة راضية بحالها متوهمة انها خير حال . فكان يزعمهم اشد ازعاج ان يقوم من ينه الامة الى فساد حالها وينفضها فيما هي عليه من العجز والتخلف .

وكانوا يستغلون طائفة من الكتاب « الوطنيين » وظيفتهم ان يخدروا الامة ويحسنوا اليها تلك الحالة الزرية ، ويحولوا بينها وبين التنبيه لحقيقة الامر . فاذا قام من يحاول كشف القناع عن هذا الكذب والتوهيب والنفاق حملوا عليه اعنف حملة ورموه بانه جارح للكرامة القومية مزر بالهزة الوطنية ضار بقضية الوطن ، فهو اذن خائن يحالف الاعداء ويخدم اغراضهم .

ثم تبدت تلك السياسة على انهما في الفضيحة التي كانت في حقيقتها بدء تحرك الضمير العربي وانتباهه الى جرائم الاقطاعيين والرأسماليين . وهو التحرك الذي قاد الى انفجار بركان الثورة في يولييه سنة ١٩٥٢ . نعتي فضيحة الاسلحة الفاسدة . فحين بدأت الشائعات المزجة تنتشر عن سوء حال جيشنا في فلسطين ، وعن ضعف استعدادنا العسكري في مختلف النواحي الضرورية وعن فساد ذخيرتنا وكيف اتخذها الملك الفاسق وحاشيته مجالا للربح غير آبهين لخسائر الارواح دعك من تحقق الهزيمة وحلول العار الوطني ، انبرت تلك الطائفة المأجورة من الكتاب تؤكد لنا ان كل شيء على ما يرام ، وأن جيشنا في خير حال واكمل عدة . ثم تحمل على اولئك « الخونة » مروجي الشائعات والاراجيف الذين غرضهم الحقيقي ان يفتتوا من عضدنا ويضعفوا من روحنا المعنوية حتى يسهل للعدو التغلب علينا . هم اذن عملاء قد رشاهم الاعداء ليشوهوا سمعة ملكنا الصالح ويلطخوا شرفنا القومي ويخربوا قضيتنا الوطنية ...

لكنني وقد اصررت على ان حرية الفكر الثوري هي ضرورة ماسة لا بد ان نطلقها من اسار فهمنا الديني الشائع ، ومن اسار مواضعنا الاخلاقية المقبولة ، اصر الان بنفس الاصرار ، بل بمزيد من الاصرار ، على انها كذلك ضرورة ماسة لا بد ان نطلقها من اغلال فهمنا القومي السائد المسيطر . ولست اعني انها ضرورة ماسة لمفكرينا انفسهم كأفراد مثقفين يجب ان يتمتعوا بحرية التعبير عن افكارهم الجديدة ، بل اعني انها ضرورة ماسة للوطن نفسه ، وانها اشد ما تكون لزوما له في محنته الراهنة نفسها، فالحاجة اليها لم تقل في ظروف هذه المحنة بل هي قد زادت اضعافا .

وفي سبيل اثبات هذا لسنا نحتاج الى ان نناقش معتقداتنا القومية المتعددة مناقشة جزئية مبثثة ، ولكن نحتاج الى ان نناقش مناقشة اساسية مفهوم الوطنية الشائع لدينا ، حتى نرى حاجته الى ان ندخل عليه تغييرا جذريا .

كيف يفهم معظمنا معنى الوطنية ؟ وماذا ينتظرون حين يقولون على سماع خطبة او قراءة قصيدة او مقالة يعتقدون انها « وطنية »؟ هم ينتظرون من الخطيب او الشاعر او الكاتب الا يفعل شيئا سوى ان يتقنى بخصالنا فلا يرى فيها الا فضائل ، ويشيد باعمالنا فلا يجد فيها الا مناقب ، ويعلي شأن تاريخنا فلا يقرأ في صفحاته الا مفاخر ومآثر . وان يعرض سلوكنا الوطني في قضايانا الكبيرة فيجده كله صوابا لا خطأ فيه ، وينسب الى الآخرين من اعداء وخصوم كل الوزر وتسام الجرم وكامل المسؤولية فيما يصيبنا من نكسات ونكبات وهزائم . منكرنا في هذا كله ان تكون بخصالنا رذائل او باعمالنا مساويء او بتاريخنا مخاز او بسلوكنا الوطني إخطاء وخيانات وجرائم .

لكن ان لنا ان ندخل على فهمنا معنى الوطنية تغييرا جذريا يؤدي بنا الى ان ندرك ان الوطنية ليست مجرد الاعتزاز بالوطن والتفاخر بمحامده وعلان مزايه ومناقبه . بل الوطنية الصحيحة ، الوطنية الصادقة المخلصة ، الوطنية الحكيمة النافعة ، هي الرؤية الواضحة الواعية لحقيقة الاحوال والاضاع ، خيرها وشرها ، حسننها وقيبحها . ليس هذا فحسب ، بل ان الجزء الاثمن من الوطنية هو الذي يدرك النقائص والعيوب ويعترف بها اعترافا صادقا امينا . هذا هو الجزء الاكبر نفعا ، وهو الذي يحتاج الى نصيب اعظم من الشجاعة ومن التضحية ، فهو اكبر تدليلا على صدق الرغبة في خدمة الوطن ونفعه .

ذلك ان الاعتراف بالنقص هو الخطوة الاولى التي لا بد منها نحو محاولة العلاج . فالفكر الذي يقبل على سيئاتنا فيشرحها تشریحا تام المصارحة وان ألم ووجع ، خير لنا الف مرة من خطيب وشاعر وكاتب يرضى غرورنا ويتملق عواطفنا ويزين لنا كل اخلاقنا وواضعنا وعقائدنا ويوهنا بانها جماع الفضائل وملئقي الحاسن وعين الصواب . ذلك الاول هو الصديق الصدوق والناصح الامين مهما تؤلنا صراحتة ، وهذا الثاني مهما يشمرنا بالرضى والسعادة والاطمئنان جري به ان يكون عدوا في ثياب صديق ، او هو على اقل تقدير صديق جاهل يسترنا اكثر بكثير مما يفرنا العدو العاقل .

وهذا هو مفهوم الوطنية الذي انتهت اليه امم حديثة سبقتنا الان اشواطا طويلة في الحضارة الراقية والنضج الفكري والتقدم الوطني . امم مهما يكن من العدا بيننا وبينها - او على الاصح بيننا وبين حكوماتها ورجال سياستها ، فنحن لا نعادي امة من الامم - فلا شك اننا نستطيع ان نتعلم منها الكثير من الدروس الفكرية والوطنية ، لان افرادها لا يمتازون علينا بالنضج الفكري فحسب، بل يمتازون علينا بتصويب اكبر من الاخلاص العملي - لا مجرد

ثم كان ما كان من هزيمتنا المخزية في سنة ١٩٤٨ وضياح فلسطين منا وثبوت حقائق الذخيرة الفاسدة . فاتضح لنا اي الفريقين كان الوطني المخلص الوطنيية وايهما كان الخائن المايجور

وقد قادت تلك الفضيحة كما قلنا بصفة مباشرة الى انفجار ثورة يولييه ١٩٥٢ . ومن يومها اتخذ رجالها في حكمهم لنا سياسة المصارحة ونبذوا سياسة التخدير .

فان اردنا ان ندرك الى اي مدى وصلت سياسة المصارحة هذه فلنقتبس هنا ما قاله قائد ثورتنا ورئيس جمهوريتنا في تلك الهزيمة نفسها ، حين تحدث حديثه التاريخي الجليل الى اعضاء المجلس التشريعي لقطاع غزة ، فكشف لهم عن الاسباب الحقيقية لتلك النكبة (انظر جريدة الاهرام ٢٧ - ٦ - ١٩٦٢) . فارجع معظمها الى تقصير العرب انفسهم ، لم يتخلص منها تخلصا سهلا بالقاء وزرها على الاستعمار والصهيونية . بل هو قد وضح ان الاستعمار والصهيونية لم يفعلوا سوى ان استفلا بمهارة ودهاء عيوبنا واخطائنا .

في ذلك الحديث الشجاع الذي اعده بداية عهد جديد في تطهر الضمير العربي ، اعطى جمال عبدالناصر تحليلا امينا لاطنائنا ونفائصنا وخيانة حكامنا ، ودلل على انها هي التي مكنت الاستعمار والصهيونية من الفوز بفلسطين . وصف كيف قصرنا نحن العرب في الاستعداد حتى اخذنا على غرة دون ان يكون لنا اي عذر في ذلك التقصير ، فقد قام من بيننا من يحذروننا من ذلك الخطر المائل . ثم قال دون مواربة « وانا اعتبر ان سبب النكبة في عام ١٩٤٨ هم العرب اكثر من اليهود » . وسجل على الجانب العربي بجيوشه السبعة ما سجل من ضعف الاخلاق واضاعة اموال التسليح في غير ما تسليح . وذكر ما حدث من ضياع مواقع بدون قتال وضياع مناطق دون ان تطلق فيها رصاصة واحدة ... الى آخر ما قال في صراحة نادرة المثال ، مكررا الدرسي الاليم : « كنا نحن العرب المسئولين عن هذه النكبة ، وليس نتيجة ١٩٤٨ فحسب وانما نتيجة ١٩٤٨ وما قبلها . » لم يخش في صراحته وامانته لومة لائم ولم يخش غضبة عربي او شماتة صهيوني ولم يهجم ان ياخذ كلامه عدو او خصم ليستقله كما يحلو له .

ومن يومها رفض جمال عبدالناصر ان يخفف من سياسة المصارحة هذه رغم احتجاج من احتجوا عليها . وفي اكثر من مناسبة فسي احاديثه امام مجلس الامة رفض الحججة التي تقول ان اعترافنا باخطائنا ونفائصنا يسر الاعداء اذ يتمكنون من استقلاله فسي مصلحتهم . وكان رده الفحج ان الاعداء يعلمون تلك الاخطاء والنقائص ، فاذا لم نتحدث عنها فاننا لا نخفيها عن الاعداء بل نحاول اخفاءها عن انفسنا ..

قلت ان ذلك الحديث كان « بداية » عهد جديد في تطهر الضمير العربي ، ويؤسفني الان ان اضيف اننا نحن العرب لم نمض في المرحلة التي بداها ذلك الحديث شوطا طويلا . فان سلئت على من يقع وزر هذا التقصير اجبت بدون تردد : على مثقفينا المنوط باعترافهم القيام بالثورة الفكرية . فقد كان ينبغي عليهم ان يتخذوا من ذلك الحديث قدوة صالحة وفرصة ذهبية يستغلونها للتغافل وراء تلك الاخطاء والنقائص التي لخصها الرئيس جمال عبدالناصر ، حتى يستكشفوا اسبابها الدفينة في تاريخنا واوضاعنا وعقائدينا وقيمنا وعقدنا النفسية العميقة . ولو فعلوا لربما تجنبنا الترددي فسي هزيمة اشنع ومصاب افدح ، هو حرب الايام الستة في يولييه ١٩٦٧ . بهذا نعود الى ما اثرته في المقالة الاولى من هذه المقالات . ومن كلامي هذا يتجلى للقارئ انني اوقع المسؤولية الاولى في تلك الهزيمة القاسية على كاهل المثقفين العرب . فانه اذا كان صحيحا ان هزيمتنا تلك لم تنشأ عن مجرد ضعف عسكري بل نشأت عن ضعف شامل مادي واخلاقي واجتماعي ، فان مثقفينا هم

الذين كان عليهم ان ينهضوا بعبء الثورة الفكرية التي تحتاج اليها الامة العربية ، والتي بدونها لن يكتب لثورتنا السياسية والاقتصادية نجاح باق . هم الذين كان عليهم ان ينهضوا الامة الى مدى ضعفها وتخلفها وحقيقة الامر في احوالها وعقائدها وتقاليدها . وهم الذين كان عليهم ان يتقدموا الى قادتنا بالنصح الامين حتى يتجنبوا الاندفاع والزلل . ولا يستطيعون ان يحتجوا بقسوة البيروقراطية وما تضعه امام حرية التعبير من عقبات في شتى اقطار العالم العربي وفي مصر نفسها . فالحرية كما قلت تؤخذ ولا تعطى ، وهي لا قيمة لها ولا مزية فيها ان جاءت سهلة هينة بدون مخاطر وبدون تضحيات . فلنكرر لهم اخيرا ما قاله جمال عبدالناصر في حديثه عن هزيمة يولييه ١٩٦٧ (انظر جريدة الاهرام ٨ - ١١ - ١٩٦٨) :

الان يبدو واضحا امامنا ان كثيرين لم يتكلموا حين كانوا واجبههم يقضي عليهم بان يتكلموا ، ومن هنا فلسوف يبقى اهم الضمانات (لعدم تكرار ما حدث) ان يكون في هذا الوطن دائما ذلك الفرد المؤمن الذي يقول كل ما يريد قوله حتى اذا اعطى راسه ثمنا لايمانه « . ما اصدقها من كلمات ! وما اشد حاجة وطننا العربي الى امثال هؤلاء الشجعان الذين يصارحون امتنا بحقيقة رايهم فسي احوالها وممارساتها وعقائدها وتقاليدها وقيمها ، مهما يستخطوا الامة - ومهما يفضبوا الحكام !

٤ - حرية الفكر . . . وحرية العمل

مهما بيد لنا الراي الثوري الجديد مخالفا لمعتقداتنا الدينية منافية لقيمنا الاخلاقية ، خارجا على مشاعرنا الوطنية ومفاهيمنا القومية ، فاننا يجب ان نسمح لصاحبه بالحرية التامة في التعبير عنه ، قولا او كتابة ، دون ان نتبعه باي عقاب او ايداء او اضطهاد ... هذه هي الدعوة التي حملتها مقالاتنا هذه ، لكننا نريد في ختامها ان نوضح ان ما ندعو اليه هو حرية التعبير الفكري ، لا حرية السلوك العملي .

فليكفر كل انسان كما يشاء وليقل ما يشاء وليكتب ما يشاء هذا ما ننادي به ، لكننا لا ننادي بان يفعل كل انسان ما يشاء فهناك فرق بين حرية الفكر وحرية العمل . فبيننا حرية الفكر مطلقة او ينبغي ان تكون مطلقة ، اذا بنا نجد من المستحيل اطلاق حرية العمل في المجتمع الانساني ، بل لا مناص من ان يحدد العمل بحدود تملحها قوانين هذا المجتمع ونظمه التي تواضع عليها . والكثيرون يخلطون بين هاتين الحريتين فيجلبون بهذا الخلط على حرية الفكر ضررا كبيرا ، ويمدون اعداءها بأسلحة قوية في محاربتها . ولعل خير ما نشرح به الفرق بين الحريتين ان نبدأ ببضعة امثلة .

هبنتي اري ان حكومتنا مخطئة في السماح ببيع الخمر ، وان من واجبه ان تحرم بيعها . فيتبني ان يكون لسلي الحق التام في التعبير عن رايي هذا ، قولا او كتابة ، في محاضرات او مناظرات او في كتب او مقالات ، اهاجم فيها تحليل بيع الخمر كما اشاء ، وابين خطاه وضرره ومخالفته للدين بكل ما نسعفني به قدرتي على البيان . لكن هبنتي الان لم اکتف بالتعبير القولي والكتابي عن رايي ، فلجأت الى حوانيت الخمر احطمها واخربها . هنا اكون قد تجاوزت حرية التعبير الفكري الى حرية السلوك العملي . وهنا يحق للقانون ان يتدخل فيقيميني ويعاقبني ، بصرف النظر عن كونه قانونا صالحا او غير صالح .

وافرض الان فرضا مضادا . افرض انني اعتقد ان حكومتنا مخطئة في تحريم الخشيش ، وانه غير ضار بالصحة الى الدرجة التي يمتقدها من حرموه - وهذا راي يرتثيه بعض اطباء - وان تحريمه -

- التتمة - على الصفحة - ٧١ -

والان الى الثورة الفكرية

تنمة - المنشور على الصفحة - ١٢ -

اكثر ضررا من ابحاثه . هنا ايضا ينبغي ان يكون لي الحق الكامل في اعلان رأيي ومحاولة التذليل عليه ، ويجب ان يقتصر رد الفعل على رأيي هذا على تفنيده واثبات خطئه وتبيين الاضرار الوييلة لتعاطي الحشيش . اما اذا لم اكتف باعلان رأيي ذلك فاشترت الحشيش واخذت اتعاطاه او بدأت انشره بين اصدقائي او ابيمه للناس ، فالان يحق للسلطات ان تقبض علي فتعاقبني ، لاني هنا ايضا اكون قد تمديت حرية الفكر الى حرية العمل .

او تخيل سودانيا يعتقد ان الحكومة في بلده مخطئة في فرض قانون المرور على الجانب الايسر من الطريق ، متبعة في هذا عادة الامة البريطانية دون غيرها من امم الارض (فقد قررت السويد حديثا نبد هذه العادة وتحويل المرور الى الجانب الايمن) فيرى ان هذا ليس الا اتباعا دليلا من مخلفات الاستعمار ، وان من الانفسع للسودان اقتصاديا ان تتبع النظام الذي تاخذ به سائر امم الدنيا، حتى تحرر اقتصادها من ضرورة شراء السيارات من بريطانيا وحدها. هذا رأي يقول به كثير من السودانيين الان ، لكن هب احدهم دفتمه حماسته لرأيه الى ان يخرج بسيارته فسي احد الشوارع المزدهمة في الخرطوم او ام درمان ويصر على السير بها على الجانب الايمن !

واليك مثلا من بيئة مختلفة تماما . تخيل انجلترا يؤمن بمذهب العري وفوائده الصحية ومزاياه الاخلاقية ، ويرى ان التستر بالملابس هو سبب اثاره الشهوات وحفز القرائز الى ذلك السراحيجوب وان تظهرنا الاخلاقي لن يتم الا بالعري التام . ثم لا يكتفي بالحرية التامة التي تترك له في انجلترا للدفاع عن رأيه ، بل لا يكتفي بالمشية في مسكرات العراة التي يسمح بها القانون هناك،فيدفعه تحمسه للعري الى ان يخرج في أحد شوارع لندن او غيرها كما ولدته امه !

وعد بنا الى بيتنا لتلمس امثلة موازية ، ولتحكم بان ايمان احدنا بضرر النجاب وخبثه لا يجيز له ان يهاجم النساء اللاتي يرتدينه ليمزقه على وجوههن ، وان ايمان الاخر بشناعة «المني جيبي» لا يجيز له ان يعتدي على الفتيات اللاتي يلبسنه في شوارع القاهرة وبيروت ... ولكن لا داعي الى المضي في ضرب الامثلة فاني اعتقد ان القارى يدرك الان السبب الذي يجعلنا نقيد السلوك العملي مهما نطلق حرية التعبير الفكري . فالاجتمع الانساني قائم على تنظيم معين لاعمال الناس ، ورسم موضوع لنشاطهم وسلوكهم وتعاملهم ، وهو لا يمكن ان يبقى له وجود اذا راح كل فرديتصرف كما يحلو له ، لانه سرعان ما يختل نظامه وتنتشر فيه الفوضى ويتعدى على افراده ان يتابعوا اعمالهم المختلفة ، فتتهدم حياتهم الاجتماعية .

فوجودنا في مجتمع ، اي ان نحيا حياة مشتركة مع اناس غيرنا ، يحد من حقنا في ان نتصرف في كل اعمالنا كما نشاء ، ويرغمنا على ان ننزل عن قدر من حريتنا في العمل مراعاة لسلامة الاخرين وصونا لمصالحهم ، والا اضربناهم ضربا فعليا وعرقنا سيرهم في نواحي نشاطهم . ما دمنا نريد ان نحيا مع الاخرين فاننا يجب علينا ان نكون مستعدين لقبول قدر معين من التقييد لاعمالنا وسلوكنا . فان كان لنا على مجتمعنا ان يسمح لنا بحرية التعبير التام عن افكارنا وان خالفت آراءه المقبولة وعقائده المعززة ، وان يسمح لنا بحق انتقاد نظمه وقوانينه وممارساته والدعوة الى تغييرها ، فان لمجتمعنا علينا ان نطيع نظمه وقوانينه

وان نلتزم بممارساته ما دامت مفروضة ، والا نزيد على حق نقدها وتفنيدها داعين الى تغييرها واستبدال اخرى بها . وعلينا ان نظل هكذا الى ان نتجح في استمالة عدد كاف من الناس الى صفنا واقناعهم برأينا ، واذا ذلك نستطيع ان نغير هذه العادة التي نحمل عليها ونسن بقانون عادة اخرى قد اقتنع الان مجتمعنا او كثرة من افراده بصحتها وفائدتها .

وجودنا في مجتمع يفرض علينا اذن ان نحد سلوكنا العملي بحدود ما يقبله ذلك المجتمع . ولعل من الصحيح ان نقول انه كلما ازداد المجتمع تقدما فازدادت حياته تعقدا زادت القيود التي يفرضها على اعضائه في سلوكهم العملي .

اما اذا اصررنا على الحرية المطلقة ان نفل ما نشاء فلنفساد المجتمع البشري ولنبحث عن جزيرة موحشة في البحار او واحة خاوية في الصحراء نعيش فيها وحدنا ونفعل كل ما يحلو لمزاجنا ان نفعله .

والسرفي هذا الفرق بين حرية الفكر وحرية العمل هو ان حرية الفكر لا تهدد سلامة احد ولا تضر بمصلحته المشروعة ولا تفرقه عن عمله ، وانما اقصى ما تفعله انها قد تؤلم مشاعر الناس او تحزن قلوبهم . وهذه جميعا آلام عاطفية وليست اضرارا عملية وليس فيها في ذاتها اخلال بنظام المجتمع او عرقلة لنشاطه. فواجب المجتمع ان يتحملها في سبيل المنافع العظيمة التي يجنيها حين يسمح بحرية الفكر .

هنا قد يقول القارىء : ولكن اذا اطلقنا حرية الفكر افليس من الممكن ان يؤدي احراجها لصدور الناس واذاؤها لمشاعرهم الى الاخلال بالنظام واضطراب حيل الامن ، اذ يبلغ غضب الناس على هذا الذي يعبر عن آراء يكرهونها ان يهاجموه ويقتلوا عليه ، وربما يكون هو له عدد من الانصار يرون رأيه فيدافعون عنه فيشيع الهرج وتقوم الفتنة ؟

وهذا كله صحيح ، وهو الحجة التي تتذرع بها البيروقراطيات الحكومية لتقييد حرية الفكر . لكنها حجة لا نقبلها ، والرد عليها هو ان واجب الحكومات في مثل هذا الطرف ليس ان تتدخل فترغم الفكر على الصمت ، بل ان تتدخل فتحمي من ابداء القاضيين وتصون حقهم في التعبير عن رأيه غير المحبوب ، وان تفهم الجماهير المحافظة ان مصطلحها النهائية هي ان تتحمل هذا الابداء العاطفي حتى تمكن مفكريها من اداء واجبهم الحيوي في تمحيص معتقداتها وقيمتها ونفي الخاطيء الضار منها وادخال التغيير الذي يقتضيه تطور الامة وانتقالها من مرحلة في الاجتماع الى مرحلة ، والا جمدت الامة وتخلت عن التطور اللازم فتعرضت بذلك لخطر الانقراض. وهؤلاء المفكرون الثوريون هم دائما - في كل عصر وبين كل امة - قلة عديدة ، ومن هنا نفهم حاجتهم البالغة الى الحماية من غضب المحافظين . ومن هذا نستطيع ان نرسم صورتنا للمجتمع المثالي . فالاجتمع المثالي هو الذي يكون فيه هذا الاتفاق الرعي بين الكثرة والقلة . اما الكثرة فتحترم آراء القلة وتدع لها الحق في التعبير عن افكارها مهما تخالف المعتقدات الشائعة ، وتسمح لها بحرية الانتقاد للوضع والمعادن والقوانين السائدة مهما تكن عزيزة عليها . واما القلة فتخضع لقوانين الكثرة ولا تخرج خروجا عمليا عليها مهما تظنها خاطئة او ضارة مكتفية بالنقد والبدعوة الى التغيير ومنتظرة في صبر ذلك اليوم الذي تنجح فيه في اقناع عدد كاف من افراد المجتمع يمكنها من احداث التغيير المطلوب بطريقة مشروعة منظمة يسنها القانون .

ذلك مقياس بسيط تستطيع ان تقيس به كل مجتمع لتحكم حكما صائبا على جدارته بالبقاء وفرصته من التطور والترقي . لكني اريد ان انبه الى ان هذا الاتفاق مكون من شطرين متلازمين ولا بد من ان ترعى كل من الكثرة والقلة طرفها منه والا اخلت به واباحت للاخرى الخروج عليه . فسماح الكثرة للقلة بحرية التعبير

متحللون مفسدون ، او مارقون عن العروبة ، الى اخر ما تحويه تلك القائمة من الفاظ الاباحية والشعوبية والعمالة الخ ..

واما الاقطار التي قامت فيها ثورات تحريرية فانها هي ايضا لا تزال بعيدة عن توفير الحرية الفكرية الكاملة لمفكرها في نقد الاوضاع والمفاهيم والقيم الدينية والاخلاقية والوطنية الشائنة بين الجماهير المحافظة . بل الظاهرة العجيبة المحزنة ان هذه الانظمة الثورية قد تكون اكثر حساسية تجاه التهم الدينية والخلقية والقومية من الانظمة الرجعية ، وكأنها تدفع ضريبة تحررها السياسي والعسكري والاقتصادي بتضييق زائد على مفكرها في شؤون الفكر الديني والاخلاقي والوطني .

وهذا خطأ بليغ يدرك مداه من تابع مقالنا هذه . فلا نجاح يبقى لهذه الانظمة الثورية ان تشفع تغييرها العملي الذي فرضته بسلطة القانون بتغيير جذري عميق في كافة المفاهيم والقيم المتخلفة من النظام القديم ، في ثورة فكرية تتناول بالنقد الحر الطليق جميع معتقداتنا ورائنا ومسلماونا وتقاليدنا وعقدنا . هذا وحده هو الذي سيمكن حكوماتنا الثورية في مختلف اركان وطننا العربي من تحقيق هدفها المنشود في انشال امتنا من مخلفات قرون التأخر والانحدار والسعي الى حياة راقية متحررة كريمة تستعيد لها مكانتها العزيزة وتستردها ارضها المفتتحة وحقوقها المضاعة . وبدون هذه الثورة الفكرية تظل كل انجازاتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والتشريعية معرضة لخطر الردة الذي تهددها به القوى الرجعية ، تلك القوى التي سلم ميثاقنا بانها لا تزال كامنة في اعماق مجتمعا .

القاهرة

محمد النويهي

موقوف على طاعة هذه لقوانين المجتمع ما دامت قائمة والا كانت القلة قد تجاوزت حرية التعبير المشروعة وحللت للكثرة معاقبتها . وطاعة القلة لقوانين الكثرة موقوف على سماح هذه لها بحرية التعبير المطلقة حتى تنقد من الاوضاع والمفاهيم والقيم ما لا يعجبها وتقوم بتنفيذه قولاً او كتابة داعية الى تغييره، والا صار مباحاً للقلة ان تخرج خروجاً عملياً على القوانين القائمة .

هكذا يمكننا ان نحدد الظرف الوحيد الذي يجوز فيه للأفراد ان يتجاوزوا حرية الفكر الى حرية العمل : وهو حين يجدون حقهم في التعبير عن آرائهم بالقول او الكتابة مسلوباً ، فلا يجدون امامهم مجالاً مفتوحاً للتعبير عن استهجانهم لتلك الاوضاع سوى تحديها تحدياً فعلياً بصيانتها ومخالفتها ومحاولة هدمها بالقوة ، او قل في كلمة واحدة : بالثورة .

وهذا هو تبرير الثورة : انها الطريقة الوحيدة التي يجدها المفكرون ذوو الضمائر الحية والوعي اليقظ حين يهولهم سوء الاحوال ويرون بثاقب نظرهم الكارثة التي تسير الامة اليها ولا يجدون وسيلة اخرى لتنبهها ودفعها الى احداث التغيير الضروري لاسه محرم عليهم ان ينهبوا الامة ويصروها بحقيقة الاحوال ويقنعوها بضرورة التغيير .

اذا كان كلامنا هذا صحيحاً فنستخلص الان مفزاه لامتنا العربية في كافة اركانها وانظمة الحكم فيها . سواء منها ما لا يزال يخضع لانظمة محافظة ، وما قد اعلن اعتناقه لانظمة ثورية . ولنواجه هذا المفزى باقصى ما نستطيع من مصارحة .

اما الاقطار الاولى فلا تزال حرية الفكر فيها مقيدة بقيود عظيمة تضيق على المفكرين الخناق ، ولا يزال هؤلاء المفكرون يتحملون العقاب والادانة بمختلف التهم ، من اتهامهم بانهم كفره ملحدون ، او

« نحو ثورة ثقافية عربية »

في مطلع نيسان (ابريل) ١٩٧٠ ، تصدر « الآداب » عندها السنوي الممتاز الذي يشارك في تحريره نخبة من الادباء العرب ، معالجين مختلف الموضوعات المتصلة والفلسفة والدين واللغة والادب والاجتماع والاقتصاد . وستتناول هذه الابحاث بصورة خاصة واقع الادب العربي الحديث ، بمختلف الوان وفنونه ، ومستقبله المرجو ، وسيكون لادب الشباب قسط وافر من هذه الابحاث .

والباب مفتوح لجميع المفكرين والباحثين والنقاد والادباء ممن لا تستطيع المجلة ان تتصل بهم ، للمشاركة في تحرير هذا العدد الممتاز ، على الا تتأخر المادة المرسله عن آخر شباط (فبراير) ١٩٧٠ .